الاتّساق النَّصيّ الدَّلاليّ وأثَرُهُ في الوظيفةِ الإبلاغيّةِ
ديوان (سعاد) للشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة أنموذجًا

أ. م. د. رحيم كريم الشَّريفيّ

مقدمة:

الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبده الكتابَ تبيانًا لكلّ شيء، وجعله شفاءً لكلّ عَيّ، وهدًى من كُلّ غَيّ، والصلاة والسلام على محمدٍ من أشرفِ قبيلةٍ وأكرم حيّ، وعلى صحبه وآله ما لجأ ظامئٌ لريّ.

أمابعد: فقد تميَّز نحو النَّص بانطلاقه من دلالات عامة تتجاوز الجملة هدفها تحديد الوسائل التي مكّنت من ربط الجمل، وشكّلت منها وحدةً دلاليةً متلاحمة الأجزاء، وذلك بتفكيك ما يُعرَف بالنظام الذي يحكم البنية العامة للنّص من حيث ترابط عناصره، أو أجزائه. إنَّ النَّص المُتَّسق هو الذي يتيح لقارئه التنقل بين جمله بسهولة، ويُشعره أنَّه وحدة واحدة غير متجزئة.(١) ويُقصد بالاتساق ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المكونة للنّص، ويُهتَمّ فيه بالوسائل اللغوية (الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة للخطاب (٢). ويرى الباحثان هاليدي ورقية حسن أنَّ مصطلح التماسك لايُركّز على ماذا يعني النَّص بقدر مايركّز على كيفية تركيب النَّص بوصفه صرحًا دلاليًا. (٣)

والاتساق يعني الترابط بين أجزاء النَّص، وحتى يكون النَّص متَّسقًا لابدَّ أن يكون مترابطًا من بدايته إلى نهايته وبين مستوياته جميعها، ولعلَّ تحقيق مثل هذا أمرٌ بالغ الصعوبة؛ لأنَّ تحقيق الاتساق على هذا المستوى يتطلب دقةً في تلمّس العلاقات المتشابكة وهذا يحتاج إلى بَصَرٍ بأساليب تشكيل الظواهر المشتركة، وهذا الاتساق يحصل بتوافر قرائن لغوية، وملاطفة التتابعات الكلامية المتنوعة، مما يُسهِمُ في ترابط النَّص ترابطًا دلاليًا.

وبدا لنا أنَّ ديوان (سعاد) للشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة بما يحويه من نصوص تستحقّ البحث والتفتيش، فالقراءة التفاعلية في نصوص العتيبة تُشبهُ تداخل العناصر كيميائيًا، وهو مَزجٌ لها، وليس نتاجًا مباشرًا - كما سنرى -لأحدها، وبفضل هذه العملية التي هي وُجهَتُنا في هذا البحث فإنّنا سنظفرُ بالدلالات والتواصلية، ولايعني هذا اصطيادها مبكرًا، والعثور عليها آنًا؛ لأنَّ النَّصَّ الذي يُكشَفُ -للوهلة الأولى- عن انتظامه واتّساقه الجماليّ والدلاليّ سرعان مايفقدُ القارئُ لذَّةَ الإقبال عليه، تلك اللذة التي تحدَّثَ عنها (رولان بارت) وجعلها في صميم الشّعرية النَّصيّة المُعبّرة عن آفاقٍ دلاليةٍ وتموجات وجدانية(٤)، ومن هنا عزمنا على البحث في ديوان العتيبة، من أجل رصدِ عناصر الاتّساق فيه، إذ كَرَّسَ إمكانياتٍ عدَّة منها مايعود إلى العلاقات النَّصيّة التقابلية مثل هيمنة الألفاظ المتقابلة، وثنائية التّضاد الدلاليّ، ومنها مايعود إلى العلاقات بين الإجمال والتفصيل، وهي علاقات تمثّلُ تَناسُلَ مجموعة من العناصر والحلقات والبيانات على سطح عنوان يُمَثّل عَتَبَةً نَصّيَةً، فضلًا عن العلاقات المنطقية المُتَرَسِّمَة بعلاقة السبب بالنتيجة، وعلاقة الشرط بالجواب، ومنها مايعود إلى التَّكرار الدلاليّ الذي يُمَثّلُ وسيلةً نصّيّةً اتّساقيةً تُعلي من تواصليةِ الإبلاغ، وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة ومطلبين تناولنا في المطلب الأول العلاقات الدلالية، أما الثاني فقد بحثنا فيه التكرار الدلالي، وخاتمة تضمّنت أهم نتائج البحث.

المطلب الأول: العلاقات الدلالية:

١- العلاقة التقابلية: العلاقة التقابلية هي الربط بين طرفين، أو موقفين، أو حدثين متقابلين، ويتحقق الربط في النَّصّ بواسطة التقابل في ضوء سلاسل مترابطة من الوحدات التي تخلق الاتساق في النَّص (٥)، وجاءت الألفاظ المتقابلة في ديوان (سعاد) لتُسهِمَ في بناء

النَّصّ واتّساقه، ويظهر النَّصُّ كعلاقة لغوية كبرى تُختَزَنُ فيها مجموعةٌ من الألفاظ المتضادة، وكلُّ مفردة من هذه المفردات تحمل دلالةً موازيةً للأُخرى في علاقة متّسقة حتى تصلَ معكوسةً إلى المتلقي الذي بدوره يفككها إلى حلقات ذات معانٍ جزئية حيثُ يُفهَمُ اللفظُ بضده، والتضاد وسيلةٌ حجاجيَّةٌ إقناعيةٌ، وهو حليَةٌ تنتجُ صورًا جماليةً لفظيةً تُسهِمُ في تماسك النَّص واتّساقه(٦) وجاء التَّضادُ في الديوان ليُسهم في تعميق المعنى وشدِّ سطح النَّص، ويتجلّى هذا في قوله:

سَجَدتُ أطلُبُ وَصلا
لاينتهي بصدودِ
سعادُ همسُكِ يعلو
على ضجيجِ رعودي (٧)

إنَّ الجمع بين هذه الثنائيات المتضادّة (وصلًا وصدود) و(همس و ضجيج) أسهَمَ في السَّبكِ لفظًا ومعنًى، فهو وسيلةٌ إقناعيةٌ من جانب، وطُرُزٌ لسطحَ النَّص من جانبٍ آخر، وتبرزُ قدرَةُ التَّضاد في تحريك قوَّة العقل، وتنشيط قوة الشعور لذا اجتمع لها كمال اللفظ والمعنى (٨). إنَّ الذي يميّز التَّضاد في ديوان (سعاد) أنَّهُ قائمٌ على مقاطع عدَّة كلّ مقطع يتناول موضوعًا فرعيًّا يتصلُ بقضية النَّص الكبرى، وسمة هذا المقطع أنَّهُ قابلٌ للتشعيب في فرعين أحدهما موجب والآخر سالب، ومن ذلك قوله:

أشكُرُ اللهَ على ماض وآت
فلأيام شتاتي فضلُها (...)
جعلتني نارها صُلبًا فما
كَلَّ منّي العزمُ أو لانت قناتي(٩)

ورغم الصراع القائم بين المتناقضات داخل النَّص (ماضٍ وآت) و(صُلبًا ولَانَت) إلّا أنَّها أفضت إلى يقين لدى المتلقي حيث ولَّدَت طاقةً قادرةً على إقناع الآخر بقضية النَّص وموضوعه بقالبٍ متناغم، فهو قائمٌ على التنافر في الدلالة والتآلف في الإيقاع، فالشاعرُ يُختَطف في صورة (جعلتني نارُها) من ذاته في دلالة استعاريّة لِمَن يَتَجَشَّمُ حرارةَ النّار ولَهيبَها في تَجَرُّعِ الفراق والنأي عنها، فالشاعر لايئِنُّ، ولايتحسَّرُ، ولايتأوّهُ، إنّما يَقوى، ويَصمُد، وهذا ماتوضّحه التحولاتُ المُحدثة في تراكيب دلالات الاستعارات، وبهذا الأسلوب سعى الشاعرُ إلى إيصال أفكاره إلى المتلقّي إذ إن التضادَّ يضمن إيصال المعنى على نحوٍ أشدُّ وقعًا وأكثرُ عمقًا في النفس المتلقية، لما للوصف فيه من أهمية في تبصير الآخر وبسط الحقائق أمامه، ونلحظ هذا في قوله:

ظننتُ بأنّ التجنّي معيد — لعمر الشباب فأرخَت وشَدَّت
إلى العدلِ عودي لتُفتَح دَرب — أمام المحبين بالظلمِ سُدَّت (١٠)

وقوله:

إن كنتُ في حُبّي سَجينًا كيف لا — تعفين كي يتحقق الإفراجُ
ماعاد يعنيني الصراع وليس بي — رغم الخديعة ياسعادُ هياج
أنا هادىء جدًا وبين جوانحي — حبٌّ مُضيء، ساطع، وهّاج (١١)

تتقابل الجملتان في الديوان تقابُلًا مُعجبًا بكُلّ ماتتنظم فيهما من ألفاظ (أرخت وشدّت) و(لتُفتَح وسُدّت) و (سجينًا والإفراج) و(هياج وهادىء) لتُحَقق اتّساقًا نَصّيًّا يختزنُ فضاءات من الدَّلالات من جهة، ويرسِمُ صورةً إبلاغيّةً وتواصليّة من أجل شَدِّ انتباه المتلقي وإقناعه من جهةٍ أُخرى، وتبدّى لنا أنَّ الشاعر تمكّن من سَكِّ هذه المتضادات لتُسهِمَ في بناء النَّص وتُحدث هذا التعالق بين وحداته فهي أشبه بشبكة من عناقيد المعنى التي تفرّعت لتُنتج هذا التثمير الدلاليّ الذي بدوره عمّق العلاقة بين مُنجِز النَّصّ ومتلقيه.

إنَّ التضاد من شأنه أن يكشفَ عن أسلوبٍ فنيّ يؤثر في المتلقّي في ضوء تجلّي المعنى واتّساعه ؛ لأنَّه يجمع بين متنافرين متضادين، إذ بالتضاد تتَّضح الأشياءُ، وتصل الأفكارُ بطريقةٍ تشدُّ المتلقّي، وتعمل على إقناعه فضلًا عن ذلك، فإنَّ التضاد يؤدي إلى التضام الدلاليّ في النَّص، فالضدُّ يُعرف بالضدِّ.(١٢) بنى الشاعرُ التقابلَ على اختيارِ واعٍ للغة فكان لذلك العرض الحركي المتعاكس داخل النَّص دورٌ في

اتساقه وترابط سطحه، كما أسهَمَ التَّضاد في سبك النَّص.

٢- علاقة الإجمال والتفصيل: تقوم هذه العلاقة على ذكر قضية في بداية النَّص ثُمَّ يقوم صاحبُه بطرح قضايا أُخَر مفصّلة لها تُعينُ المتلقي على الفَهم والاستيعاب بما تحمله من دلالات ومعانٍ مُكثَّفة فهي تُنتجُ تثميرًا دلاليًّا، وتُعمّق الصلة بين مُنجِز النَّص ومتلقيه لتصلَ أفكارُ منتج النَّص إلى المتلقي بوضوح ويُسر، ويمكننا الكشف عن هذه العلاقة التي تظهر بجلاء في قوله:

لَئن أصغَيت لي وسَمعت قلبي ولم تَمُت الظنونُ فجربيني
مُريني أن أُقبِّلَ ثغرَ أفعى وإن أحجَمتُ خوفًا أدّبيني
سرى في خافقي سُمُّ الأفاعي وأكسَبَني المناعةَ فاكسِبيني
أحبُّك فالعذابُ لديك عَذبٌ ولي أمَلٌ بأن تستعذبيني
على الصدرِ الحنونِ وضَعتُ رأسي وليس يجوزُ أن تتجنبيني
فَقُربي منكِ يمنحُني حروفي ويمنحُك الخلودَ فقرّبيني
أنا في صفحةِ التأريخ حرفٌ وحتّى يُقرأ الحرفُ اكتُبيني
هبيني من رِضاكِ عليَّ عزًّا وفوقَ رمالِ عزَّتِك اسكبيني (١٣)

ويمكننا التمثيل لهذه العلاقة التفصيلية على النحو الآتي:

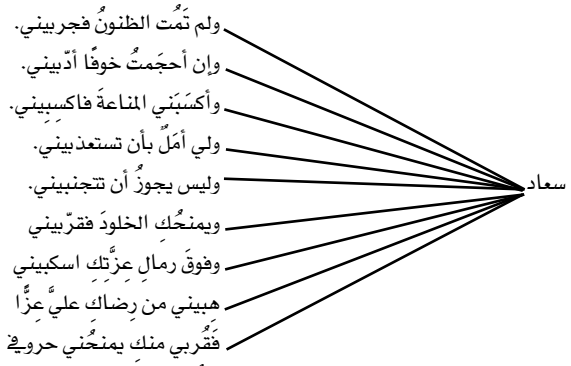

إنَّ قولَه (سعاد) بمثابة جذعٍ تفرَّعت منه العروقُ، وتهدَّلَت عنه الغصونُ، فهو تشجيرٌ نصّيّ، وفي الوقت ذاته تشجيرٌ دلاليّ (١٤) من أجل الوصولِ إلى التأثير في المتلقي، وشدِّه وإذكاء رغبة عارمة عنده لاستحصال المزيد، فقوله (سعاد) هو الجذر الكلاميّ الذي انبثقت منه كلُّ التفرعات الكلامية، ولعلّ صورة (سعاد) الواردة في دلالة العنوان توضّحُ رؤية الأفق المُنتظر، فهي عتبةُ النَّص بوصفها رَمزًا إسقاطيًّا إلى ماينبغي أن يكون، وانتظار الواعد المرجوّ خيرُهُ، أو المتوافر فيه الكفاية.

وإذا تأمّلنا هذه العناصرَ المُتفاعلةَ التي تُمثّلُ بيانات مفصَّلة لهذه الرَّسمة التي ذكرناها من قبلُ وجدنا طغيانَ ظاهرة التطابق الفعلية الدلالية، ولاسيّما الأفعال الأمرية التي تُمثّلُ تواصلًا إبلاغيًّا عاليًا، واتّساقًا نصِّيًّا مُعجِبًا؛ لأنَّ الأمرَ يتطلّب مخاطَبًا، وإلّا أصبَحَ لَغوًا، ونلمحُ هذه التعاقبية الخلّابة للأفعال الأمرية التي خرجت إلى سياقات إنتاجيّة توليديّة في سياق (الالتماس والطلب المشوب بتوسّل رقيق)، من شأنه إحداث استجابة وجدانيّة شعورية، وهذا ما نترسَّمُهُ في الأفعال (فجربيني، أدّبيني، فاكسبيني، فقرّبيني، اكتُبيني، اسكبيني).

لقد أسهمت علاقة الإجمال والتفصيل في إضفاء مسحة جمالية على الديوان إذ هي من المقومات الأساسية التي ترتكز عليهاالبنية الدلالية، وأعظم بقدرة الشاعر مانع سعيد العتيبة على هذا التوالد الجمليّ الذي أضاء المُنجَزَ وعبرَّ عن الثراء النَّصيّ الذي يملكه، فالجمل الواردة بعد الجذر اللفظي هي تفصيلاتٌ وتعبيراتٌ له، وقد اكتست شرعية وجودها في ظلّ شجرة النَّص. هذا التفصيل هو أشبه بعناقيد تشابكت، وغصون تهدَّلَت، وتعددت دلالاتها حتى يُظهِرَ في ظلِّها صاحبُ النَّصّ القضية الكبرى في النَّص، ويمكن القول: إنَّ البوحَ بحبِّ سعاد يمثّلُ عنوانًا رئيسًا لقائمة كبرى تنتظمُ فيها مجموعةٌ من عناصر وبيانات ذات دلالات متسلسلة متتابعة تتضافرُ في خلق

اتّساقٍ نصّيٍّ دلاليٍّ يقودُ إلى أقصى غايات الإبلاغ والتواصل، وخيرُ شاهدٍ على ذلك التشابك الدلاليّ في القضية الكبرى (البوح بحبِّ سعاد)، قال:

رَسَمتُك ياسعادُ على جبيني	لأنّي لاأُحاذرُ أن تبيني
فأنت حبيبتي، روحي، حياتي	فهل تنوين أن تتعقبيني
سَمِعتُك تُنشدين نشيدَ حُبّي	فَغَنّي ماليكِ وأطربيني
وهل وصل اللهيب إليك حتّى	بدأت البوحَ كي تستوعبيني
إذن بوحي ولاتخشي حريقي	وفوقَ لهيب جمرُك قَلّبيني
بغير النّار كيف يكون نضجٌ	وكيف أُضيءُ أن لم تُلهبيني
تقولين الهوى رُعبٌ، فعُذرًا	لأنَّك في الهوى لن تُرعبيني
عَرَفت الحُبَّ منذ فُتحت عيني	على الدُّنيا فلا لاتُرهبيني (١٥)

ونكشف عن العلاقة بين الإجمال والتفصيل بالمخطط الآتي:

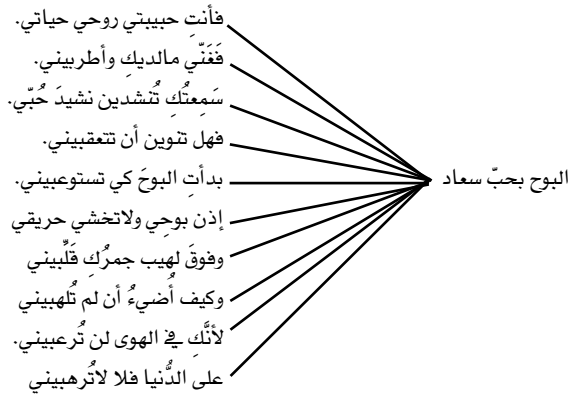

ونرقبُ في ضوء هذه الاتّساقيّة الوجدانيّة الشّعورية التي اضطمّت عليها عَتَبَةُ النَّص (البوح بحبِّ سعاد) جملةً من الدّوال اللفظيّة التي تُعَدُّ وسائلَ حجاجيّة وإبلاغيّة تواصليّة تارة، ودلاليّة إيحائيّة تارةً أخرى، ونَتَرَسَّمُ في ذلك الضمير المنفصل (أنتِ)، وياء المخاطَب في (غَنّي، أطربيني، تنشدين، تنوين، تتعقبيني، تستوعبيني، بوحي،...) وكاف الخطاب العائد إلى (سعاد) في (سمعتُكِ، لديكِ، جمركِ، لأنّكِ)، زِد على ذلك أسلوب الاستفهام الذي خرج من دلالته الحقيقية إلى بيانٍ إنتاجي توليدي هو سياق الاستنكار، وتبدى لنا أنَّ هذا التفصيل يُسهِمُ في تحشيد الدلالات التي توسِّع المعنى، وتزيد من عمقه فتصطف الدلالاتُ جميعها وتتعاضد ؛ لتوصلَ المعنى إلى المتلقي، وتحقق إقناعه بالفكرة التي يرمي إليها صاحبُ المُنجَز.

وربمَّا يبدو للمتلقي أنَّ هذه النصوص منقطعة بعضها عن البعض، ولكنَّ الحقيقة غير ذلك تمامًا ؛ لأنَّ بناء النَّصّ جاء على وَفقِ محدِّدات وصفية تفصيلية تارةً عن سعاد، وتارةً أُخرى عن البوح بحبِّ سعاد، وهذه العلاقة أسهمت بفعالية كبرى في تلاحم نسيج النَّص.

٢ – العلاقات المنطقية: لاجَرَمَ أنَّ العلاقات المنطقية البُرهانية قائمةٌ على العلاقات السببية المستندة إلى الظفَرِ بالعلل والمسببات من أجل إحراز النتائج، واقتناص المُراد من الثوابت والفرضيات، وتترسَّمُ هذه العلاقات في ضوء أشكالٍ بَصُرَ بها الباحثان، منها:

أ – علاقة السبب بالنتيجة: إنَّ هذه العلاقةَ تقومُ على أساس الربط بين قضيتين تكون إحداهما بسببٍ من الأخرى، وتُسهِمُ هذه العلاقة في التحام أجزاء الجملة الواحدة، أو مجموعة من الجمل داخل النَّص،فتعمّق تقنية الاتساق النَّصيّ من جهة، وتقوّي الوظيفة الإبلاغية من جهة أخرى، والمتأملُ في نظم هذا الديوان يجد هذا الترابط المنطقيّ البُرهانيّ إذ نستشعرُ تناسُلَ النتائجِ في السبب الواحد وهي سِمَةٌ مُبصرةٌ في هذا المُنجَز بلحاظ قوله:

تعالي إليَّ سعادُ وكوني
خريفًا، شتاءً، ربيعًا، وصيفا
فما ظلَّ في العمر إلّا القليل
وبالوصل نجلو عن العمرِ خوفا
تنامُ عيونُ جراحي وتشفى
تعالي لِنقطُفَ وردَ التصافي
ونَرشف شَهدَ اللقاءات رَشفا
ونفترش العشبَ تحت السماء
ونجعل غيمَ العطاءات سَقفا
نُداعب أزهارَ برّ ونمشي (١٦)

ويمكن الكشف عن الربط المركوز بين السبب والنتيجة في ضوء الرَّسمة الآتية:

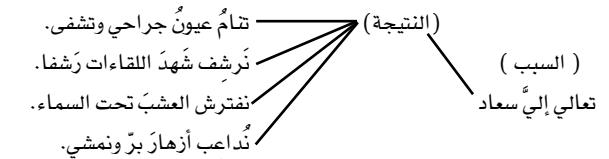

هذه العلاقة لها سُهمَةٌ باصِرَةٌ في ربط أجزاء النَّص وتلاحمه واتّساقه، لقد استهدف الشاعرُ في ضوء هذه العلاقة التنوّعَ الدلاليّ فضلًا عن التطريز الصوتيّ ممّا أحدَثَ تناغمًا دلاليًّا وصوتيًّا شَدَّ السطحَ وأضفى عليه الاتّساق، ونستنتج من هذا العرض أنَّ علاقة السبب بالنتيجة تطرح في بنية النَّص تنوعًا دلاليًّا يُحققُ الاستمرارية، ويزيدُ من ترابط النَّص واتساقه، ويظل للدلالة حضورها، فهي التي تحقق الملائمة بين الشكل والمعنى، وبين مُنجِز النَّص ومتلقيه، ونبصرُ هذه التقنية الحجاجيّة المُعجِبَة في قوله:

قولي أُحبُّكَ حتّى
يبقى ويرقى صمودي (١٧)

وقوله:

نحنُ نحتاجُ ياسعادُ هدوءًا
يرتقي فيه حكمُنا العاطفيّ
لِنرى الواقعَ الجديدَ جَليًّا (١٨)

بنى الشاعرُ مفاصلَ ديوانه على هذه العلاقة الدّلالية التي تقوم على الربط بين مفهومين، أو بنيتين، أو حدثين (١٩)، وتتضح هذه العلاقة بالمخطط الآتي:

السبب ——— النتيجة
قولي أُحبُّكَ ——— يبقى ويرقى صمودي.
نحتاجُ ياسعادُ هدوءًا ——— لِنرى الواقعَ الجديدَ جَليًّا.

إنَّ هذا الرابط المنطقيّ البُرهانيّ (السبب والنتيجة) يستند إلى الأسلوب المنطقي المتدرِّج من فكرة إلى أخرى، ونلحظُ أنَّ الشاعرَ لجأ إلى هذا الأسلوب في مواطن كثيرة في ديوانه بغية استمالة المعاني الذهنية بناءً على ثنائية تولّد الجمل تولّدًا عقليًّا واقعيًّا في ضوء اعتماد المتلقي على الأسلوب التفكيري المحض.

إنَّ تحقيق الانسجام يبدأ من تكوين النَّص ذهنيًّا إذ يتوافر نسيجٌ فكريّ يتخلل التراكيب مما يجعل الجمل مترابطةً فيما بينها؛ لتكوِّنَ بذلك تتابعًا متماسكًا من الأفكار والمعاني وهذا التتابع مرتبطٌ بلا شك بالسطح اللغوي للنَّص.

ب- علاقة الشرط بالجواب: من العلاقات المنطقية البُرهانية الجملة الشرطية القائمة على علاقة الشرط بالجواب بوجود رابطة شرطية قد تكون حاضرة (إذا، إن، لو، لمّا، مَن) وسواها، أومُكتفى عنها، تُسهِمُ هذه الجملة في اتّساق النَّص، وتوثيق عُرى لُحمَته وسُدَاه، وقد انطوى الديوان على هذه العلاقة الشرطية (الجواب والشرط) في بنائه واتّساقه، فضلًا عن أثرها المُعجِب في التبليغ والتوصيل المُرادين، وسنتناوش جُملًا شرطيةً مُنتقاة من أجل بيان مدى اتّساقية الديوان وتماسكه، ومن ثَمَّ تَشَظِّي الدلالات وتناسلها؛ للوصول إلى أعلى مراقي الإبلاغ والتوصيل الإفهاميّ للمتلقين، قال:

فإذا ضَجَّ حَسودٌ وادَّعى
أنَّ حبِّي غير شَرعيٍّ وعاتي
سأُصَلي طالبًا من خالقي
أن يكون الحُبُّ لي طوقَ نَجاة (٢٠)

فالجملة الشرطية تتجلّى بالرسمة الآتية:

الشرط ـــــــــــــــــــــــــــ الجواب.
فإذا ضَجَّ حَسودٌ وادَّعى ـــــــــــــــــــــــــــ سأُصَلي طالبًا من خالقي.

وتشتدّ العلاقةُ الشرطية اتّساقًا ودلالةً، ووظيفةً إبلاغية في هذا المُنجَز ونلحظها في قوله:

لئن أصغَيت لي وسَمعت قلبي
ولم تَمُت الظنونُ فجربيني(...)
وإن أحجمتُ خوفًا أدّبيني (٢١)

ونكشف عن هذه العلاقة بالمخطط الآتي:

الشرط ـــــــــــــــــــــــــــ الجواب.
لئن أصغَيت لي وسَمعت قلبي ـــــــــــــــــــــــــــ فجربيني.
وإن أحجمتُ خوفًا ـــــــــــــــــــــــــــ أدّبيني.

وتظهر هذه العلاقة جليّةً في الديوان وقد بَرَعَ الشاعرُ في توظيفها لِتُسهِمَ في سبكِ النَّص وإقناع المتلقي بقضية النَّص الكبرى.

المطلب الثاني: التَّكرار الدلاليّ:

لعلّ الذي ينبغي الإلماحُ إليه، قبل الخوض في صور التَّكرار الدلاليّ في الديوان أن نتأتّى - بإيجاز - إلى بيان حقيقة التَّكرار وهو ((أن يأتي المتكلم بلفظ ثُمَّ يعيده بعينه، سواءٌ كان اللفظ مُتّفق المعنى أو مختلفًا، أو يأتي بمعنى ثُمَّ يعيده وهذا من شرطه اتفاق المعنى الأول والثاني فإن كان متّحِدَ الألفاظ والمعاني فالفائدة في الإتيان به لدلالته على المعنيين المختلفين)).(٢٢) والتَّكرارُ تشاكلٌ لغويّ، ومظهرٌ من مظاهرِ التماسُك إذ يقوم ببناء شبكة من العلاقات داخل النَّص؛ ممّا يُحققّ ترابطَ النَّصّ وتماسكه، فالعناصر المكررة تحافظ على بنية النَّص، وتُغَذّي الجانبَ الدلاليّ والتداوليّ فيه؛ وذلك في ضوء تكاثر المفردات وكثافتها ممّا يُحققّ سبكَ النَّص وتماسكه، وإعادة تأكيد كينونته واستمراره.(٢٣)

ومن صور التكرار الدلاليّ في الديوان:

١ - التكرار بشبه الترادف:

يقوم على قدرة منتج النَّص على استبدال إحدى المفردتين بالأخرى مع الاعتراف بوجود فروق دلالية ضئيلة بينهما. (٢٤)، وهذه الوسيلة التكرارية تُضفي على النَّص تنوعًا إبداعيًّا دلاليًّا يُسهِمُ في اتّساقه وترابطه، ونلحظ هذا في قوله:

فَغَنّي ماليكِ وأطربيني

سَمعتُك تُنشدينَ نشيدَ حبّي(...)
إذن بوحي ولا تخشي حَريقي
وفوقَ لَهيب جمرك قَلّبيني(...)
لأنَّك في الهوى لن تُرعبيني
عرفتُ الحُبَّ منذ فتحت عيني
على الدُّنيا فلا لاتُرهبيني (٢٥).

نلحظ التَّكرار بشبه الترادف في (غَنّي و تُنشدين) و(حريقي ولهيب جمرك) و(تُرعبيني وتُرهبيني)، إنَّ تكرار المعنى بلفظين مختلفين يحقق إشباع المعنى، ويُسهِمُ في إيضاحه. (٢٦)

وبما أنَّ التطابق بين الوحدات في التكرار الدلاليّ ليس تطابقًا تامًا فإنَّهُ يُحدِثُ فرقًا طفيفًا يُكسِبُ المعنى تلونًا في باطن النَّص، وتنوعًا في ظاهره مما يدعم اتساقَ النَّص، ويُعَمّقُ معناه عند المتلقي. (٢٧)

ونُبصرُ شُبهَ الترادف في خطابه لصاحبه تَخَيُّلًا من باب المناظرة المُتَخَيَّلَة، قال:

تَمَعَّن، تأمَّل، تَبَيّن، وقُل لي
أفي ظُلمة البين بانَت سعادُ..؟(٢٨)

إذ نرقَبُ هذه الاتّساقية النَّصيّة المؤداة بصورة (شبه الترادف) بتعاقُبيّة الأفعال الأمرية المنتظمة في الشطر الأوّل، وهو ملمَحٌ اتّساقيّ دلاليّ يؤكّد حركةَ الأفعال الحسّيّة والماديّة لدى الشاعر ووصوله إلى أعلى مَراقي الهيام والتتيّم بمحبوبته.

ويبدو أنَّ الصّيغةَ الدلاليّة للأفعال الأمرية (تَمَعَّن، تأمَّل، تَبَيّن، وقُل) بصيغة المستقبل دالّةٌ على الحاضر؛ كأنّها تُشيرُ إلى الحالة التي تشبه الواقع الموجود الذي اشتّدَّ حتّى جاوزَ الحدَّ؛ بمعنى أنَّ الشاعرَ في ظلِّ هذه التعاقُبيّة يسيرُ إلى ديدنِ الواقع في معاناته وآلامه.

وبدا لنا أنَّ الشاعرَ في استعماله لهذه الوسيلة الإثرائية عمَّقَ الدلالة التي جاءت على شكل من الثنائيات اللفظية والتي أتاحت تنوعًا صوتيًّا ودلاليًّا في النَّص المُنجَز، فالتطابق بين الوحدات الدلالية المتشاكلة في المعنى ليس تطابقًا تامًّا، بل هناك فرقٌ دلاليّ بينهما أكسَبَ المعنى تمكُّنًا، وأفضى إلى تلاحم نسيج النَّص.

إنَّ التدفق الدلاليّ لعلاقة الترادف في هذا المُنجَز ظهر بصورٍ متنوعة، وهذا التنوع والثراء الدلاليّ صنعَ شبكةً دلاليةً أسهَمَت في اتساقه، وإيصال فكرة صاحب النَّص إلى المتلقي والتأثير فيه.

٢ - التضمين:

شكلٌ من أشكالِ العلاقات الدلالية يصنعُ شبكةً من عناقيد المعنى، وهو وسيلةٌ من الوسائل التي تُسهِمُ في اتساق النَّص، وغالبًا مايُهيمن التضمين الدلاليّ على الحقل فيكون بمثابة الكلمة الغطاء التي يندرِجُ تحتها تفريعات عدَّة، ونصَّ على هذا النوع من التكرار الدلاليّ هاليدي ورقية حسن (٢٩).

ونرصدُ هذا الشكل الدلاليّ حين فرَّعَ الشاعرُ من الكلمة الغطاء (العمر)، شبكةً دلاليةً، قال:

دعيني أُلملمُ ماتبقّى وإن يكُن — مُحالًا فباقي العمر لايتلملمُ
ولاتحسبي أنّي كَبرتُ فلم أزَل — رَضيع الهوى الباكي الذي ليس يُفطمُ
وعمري إذا ضاعَ في النوح جُلُّهُ — فلستُ حَزينًا طالما السعد قادمُ
بدايةُ عهد الحبّ أنتَ وفي غَد — يقولون إنّي ياسعادُ مُخضرَمُ (٣٠)

أسهمَ التضمين في سبك النَّص بتوزيع أنواعه داخل النَّص، وهذا بدوره يُشكِّلُ شبكة دلالية مرجعها للمعنى العام، وهذه المرجعية تُحدثُ تنوّعًا دلاليًّا فيه مما يُفضي إلى تماسك النَّص وإحكام نسيجه.

وقد بُنيَ النَّص في الديوان على شبكة قوية من المتضمنات بثَّت خيوطها داخل النَّص، وسُبِكَت داخله على نحوٍ يتجلّى في حديث الشاعر

على (سعاد) فهي الكلمة الغطاء، وهي كلمة تحتوي على مفاهيم دلالية مشتركة يتفرَّعُ منها (عيناك، شعرك، شفتاك) فتكرار هذه الأجزاء داخل النَّص هو شبه تكرار دلالي لكلمة (سعاد) وامتداد لحضورها داخل النَّص، فالشاعر لم يذكر الشيءَ بذاته بل بجزئه، قال:

عيناك نجمتان في ضوئهما
تُسيِّر الركبانَ والقوافلا
وشعرُك الأسودُ رغم ليله
يُضيءُ في أعيننا مَشاعلا
وشفتاك آه ما أحلاهُما
لم يترُكاني هادئًا وعاقلا
فوقهما حروفُ أبجدية
سَمعتُها فانسابَ قلبي سائلا (٣١).

وبهذا تقوم المفردات بنسج شبكة مترابطة من الكلمات المتقاربة دلاليًّا، وهي بامتداد محتواها وتشعُّبه أسهمت في استمرارية المعنى المقصود مما حقق له التماسك. ويبقى التضمين مُساهمًا في اتساق النَّص، فالحديث على(سعاد) قد حَشَدَ له الشاعرُ في هذا الحقل ما جعله وسيلةً حجاجيةً لإقناع المتلقي بقضية النَّص الكبرى، وأبصر بما أحدثه الشاعرُ من مفارقة في فكر قارئه، وقد تأتى له ذلك في ضوء الانسجام بين تلك المتتاليات التي تُحيل المتلقي إلى صورة تلك الحبيبة، ونلحظ أنَّ التضمين هو الذي يُنمِّي المعنى، فبه ينمو النَّص وفي ضوئه تتفرَّع أفكاره، ويُقرُّ علماء النَّص أنَّ من أسباب قوة الربط العلاقة الضمنية التي في ضوئها تتحقق العلاقة بين المفردات كعلاقة الكل والجزء، ونلحظُ أنَّ العلاقات الدلالية شكّلت شبكةً مترابطة من الألفاظ حققت للنَّص استمراريته بترابطه وقوة نسجه.

إنَّ الشبكة الدلالية داخل حقول التضمين تسهم في تماسك النَّص واتساقه، وخلق خطابٍ متناسقٍ عبرَّ به الشاعرُ عن همِّه وماتجيشُ به نفسه من عشقٍ لهذه الحبيبة التي ماانفكَّ يذكرها وراح يصفها وكأنها ملاكٌ راح يقدسه ويهيم به.

٣- الاشتمال:

هو شبكةٌ من العلاقات الدلالية داخل الحقل الواحد، وهو عنصرٌ في فئةٍ يُسهِمُ في تحقيق الاتساق في ضوء تداول الكلمة العامة وفئاتها داخل النَّص، زد على ذلك يُثري النَّصَّ، ويُحقق التلاحمَ والتواؤمَ في داخله، ووَرَدَ الاشتمال الدلاليّ في الديوان كعلاقة من علاقات التكرار الدلاليّ والتشاكل اللغويّ، فقد اصطفَّت التراكيب: (عينا سعاد، دليلي لمجدٍ، تطرب روحي، وصلتُ لشمسٍ) في ظلِّ الكلمة العامة التي اجتمعت فئاتُها (عينا سعاد) ويظهر هذا جليًّا في قوله:

فعينا سعاد دليلي لمجدٍ
دا ماضياً حين طال وقوفي
يغني جموحي وتطرب روحي
وأنسى من الدهر أعتى الصروف
بعيني سعاد وصلت لشمسٍ
تضيء بلا غيبةٍ أو كسوف
حبيبة قلبي وقرّة عيني (٣٢)

وهذا يؤكّدُ أنَّ شبكة الاشتمال تعودُ في مرجعيتها إلى الكلمات المفتاح التي حدَّدت بؤرة النَّص وقضيّته. إنَّ تزاحمَ المفردات المتشابكة دلاليًّا حقَّق استمرارية النَّص، وأسهم في تعالقه، فَذِكرُ نوعِ الشيءِ، أوجزئه،أو فرعه هو إعادَةٌ غيرُ مباشرةٍ للأصل لذا عُدَّ من وسائل السبك داخل النَّص. ويتَّضح تعاضد الألفاظ في نسج الفئات التي احتشدت في ظل الكلمة المفتاح (سعاد) في قوله:

يقولون: إن سعاد استبدت وطبع التجني القديم استردت

وفي كل يوم لدينا دليل على أن حال سعاد تردت
فكم من ضحايا لظلم سعاد وعين حروفك أحصت وعدت
ولكن قلبك مازال صباً بها رغم أن الخطايا تبدت (٣٣)

إنَّ علاقة الاشتمال تطرحُ في بنية النَّص تنوّعًا دلاليًّا يحقق الاستمرارية، ويزيد من ترابط النَّص واتساقه إذ تحقَّقَ للنَّصّ الملائمة بين الشكل والمعنى، وبين مُنجِزِ النَّصّ ومتلقيهِ، وهذا يؤكّدُ أنَّ الخطابّ فِعلٌ لغويٌّ يتجاذبُهُ مُنجِزٌ ومُتأثّرٌ، فيُحقِّقَ بذلك التواصلَ بينهما.

أهم قطاف البحث:

بعد هذه الرحلة في دروب ديوان الشاعر مانع سعيد العتيبة نذكر أهمَّ النتائج التي توصّلنا اليها:

١ - إنَّ النَّص المُنجَز استوعبَ أشكال الاتساق التي تضافرت جميعًا في تشييد البنية الدلالية للديوان.
٢- التكرار الدلاليّ في ظل الحقل هو نوعٌ من الالتفات المعجميّ طرّزَ النَّصَّ وأثراه وزاد من خصوبته، كما أحدَثَ تعالقًا بين وحدات النَّص.
٣ - إنَّ شبه الترادف في النَّص وَرَدَ بأشكال متعددة أسهَمَت في اتّساقه دلاليًّا.
٤ - اصطفَّت الفئاتُ داخل الحقل الواحد لتُعَزّزَ القضية الكبرى التي سعى الشاعر إلى إيصالها للمتلقي.
٥ - أسهَمَ التضادُ في دعم قضية النَّص، فهو وسيلةٌ من وسائلِ الحجاج بالإقناع تقوم على الهدم والبناء في الوقت ذاته، واقترن بفضله الجمالُ والانسجام.
٦ - تمكّنت علاقة الإجمال والتفصيل من نسج شبكة دلالية عَمَّقَت المعنى، وشَدَّت سطحَ النَّصِّ مما حقق اتساقَه.
٧ - استطاع صاحبُ المُنجَزِ من إقامَةِ علاقة السَبب بالنتيجة ليُحَقِّقَ الترابطَ المفهوميّ، ويلتحم نسيجُ النَّص.
٨ - بَرَعَ الشاعرُ في توظيفِ علاقة الشرط بالجواب التي ظهر في ضوئها حُزَمٌ من الدلالات أسهَمَت في تعميق المعنى واتساق أجزاء النَّص.
٩ - أبدَعَ الشاعرُ في توظيف العلاقات بكلِّ صنوفها في التوصيل والإبلاغ. والحمدُ للهِ أولًا وآخرًا.

هوامش البحث:

١ - ينظر: أثر الربط المعجمي في اتساق النَّص القرآني:٣١.
٢ - ينظر: الانسجام النَّصي في الرسالة الهزلية لابن زيدون:٥١.
٣ - ينظر: التماسك في الانجليزية: ١٢٦.
٤ - ينظر: الرؤيا الكشفيّة في تجربة علوي الهاشمي: ٢٩.
٥ - ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النَّصية: ١٤٥.
٦- ينظر: أثر التكرار في التماسك النَّصي: ٥٧.
٧-ديوان سعاد: ٧.
٨ - ينظر: أثر التكرار في التماسك النَّصي: ٥٧.
٩ -ديوان سعاد: ١٥.
١٠ -المصدر نفسه: ٣٦، ٣٧.
١١-المصدرنفسه:٣٨،٣٩.
١٢-ينظر: أثر عناصر الاتساق في التماسك النصي:٩٥.
١٣ -ديوان سعاد: ٤٧ -٤٩.
١٤ - ينظر: آليات الانسجام النَّصي في خطب مختارة من مستدرك نهج البلاغة:٩٢
١٥ -ديوان سعاد: ١٩، ٢٠.

١٦ -المصدر نفسه: ٥٣.

١٧- المصدر نفسه: ٧.

١٨ - المصدر نفسه: ٩.

١٩ - ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النَّصية: ١٤٢.

٢٠ -ديولن سعاد: ٢٢.

٢١- المصدر نفسه: ١٨.

٢٢ -الفوائد المشوّقة إلى علوم القرآن: ١٥٩، ١٦٠.

٢٣-ينظر:النَّص والخطاب والإجراء: ٣٠٣.

٢٤ - ينظر: أثر التكرار في التماسك النَّصي: ٤٧.

٢٥ -ديوان سعاد: ١٩، ٢٠.

٢٦-ينظر: الدلالة والنحو: ٢٤٣.

٢٧ - ينظر: أثر التكرار في التماسك النَّصي: ٤٨.

٢٨-ديوان سعاد: ١.

٢٩ - التماسك في الإنجليزية:٢٧٩.

٣٠-المصدر نفسه: ١٣.

٣١ - المصدر نفسه:٤٢

٣٢ - المصدر نفسه:٢٦.

٣٣ - المصدر نفسه: ٣٥.

ثبت المصادر والمراجع:

-- آليات الانسجام النَّصيّ في خطب مختارة من مستدرك نهج البلاغة للهادي كاشف الغطاء (رسالة ماجستير)، آمنة جاهمي، جامعة باجي مختار، كلية الآداب، ٢٠١١ - ٢٠١٢.

- أثر التكرار في التماسك النَّصيّ مقاربة معجمية تطبيقية في ضوء مقالات د. خالد المنيف، د. نوال بنت إبراهيم الحلوة (بحث) كلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد/ ٨، ٢٠١٢ م.

- أثر الربط المعجميّ في اتساق النَّص القرآني سورتا الرحمن والواقعة أنموذجًا (رسالة ماجستير) عبد الملك العايب، جامعة سطيف، كلية الآداب واللغات، الجزائر، ٢٠١٣ - ٢٠١٤ م.

- أثر عناصر الاتساق في تماسك النَّص دراسة نصّيّة من خلال سورة يوسف (رسالة ماجستير) محمود سليمان الهواوشة، جامعة مؤتة، الدراسات العليا، ٢٠٠٨ م.

- الانسجام النَّصيّ في الرسالة الهزلية لابن زيدون (رسالة ماجستير) ربيعة بن مخلوف، جامعة العقيد الحاج، كلية الآداب، الجزائر، ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ م.

- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النَّصيّة، د. جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.

- الدلالة والنحو، د. صلاح الدين صالح حسنين، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى.

- ديوان (سعاد) للشاعر الدكتور مانع سعيد العتيبة،المنتديات الثقافية والأدبية، ٢٠١٧، موقع ورد الشام.

- الرؤيا الكشفيّة في تجربة علوي الهاشمي (بحث) عبد القادر فيدوح، مجلة البحرين الثقافية، المجلد/٢٣،العدد/ ٨٦، أكتوبر ٢٠١٦ م.

- الفوائد المشوّقة إلى علوم القرآن، ابن القيم الجوزية (ت٧١١ه)، مكتبة الهلال، بيروت.

- النَّص والخطاب والإجراء، روبرت دي بوجراند، ترجمة: د. تمام حسان، عالم الكتب، ط١، ١٩٩٨ م.

- Coheion in English. Hallday & Hassan. Longman ١٩٧٦